الباب الأول

التأمل : مدلوله وبواعثه

ويتكون من :

الفصل الأول : ..... مدلول التأمل

أ - المدلول اللغوى وتطوره

ب - المدلول الفنى وبيان كنهه وكيف ينشأ...

جـ - التأمل والشاعر العربى

د - بين الفلسفة والتأمل

الفصل الثانى : بواعث التأمل

..... الفصل الأول

[التأمل : مدلوله اللغوى والفنى]

ويتكون من أربعة مباحث :

(أ) المدلول اللغوى وتطوره .

(ب) المدلول الفنى وبيان كنهه . وكيف ينشأ .

(ج) التأمل والشاعر العربى .

(د) بين الفسلفة والتأمل .

(أ) المدلول اللغوى وتطوره :

بالبحث عن مدلول كلمة "التأمل" اللغوى فى المعاجم المختلفة تبين أنها لا تخرج عن التمهل والأناه فى النظر إلى الأمور .

ففى القاموس المحيط : باب اللام فصل الهمزة . تحت مادة : أمل يقول المؤلف الأمل : كجبل " ونجم وشبر– الرجاء – آمال . آمله .أمله . رجاه وما أطول إملته بالكسر . أمله أو تأميله . وتأمل .. تلبث فى الأمر والنظر .(١)

وفى المصباح المنير : تحت مادة : أملته أملا . يقول المؤلف : أملته أملا من باب طلب : ترقبته وأكثر ما يستبعد حصوله .قال كعب بن زهير : أرجو وأمل أن تدنو مودتها . ومن عزم على السفر إلى بلد بعيد يقول : أملت الوصول . ولا يقول طمعت إلا إذا قرب منها " وتأملت الشىء إذا تدبرته وهو إعادتك النظر فيه مرة بعد أخرى حتى تعرفه . (٢)

وفى مختار الصحاح : لا يبتعد مفهوم الكلمة كثيرا عن المعنيين السابقين :يقول المؤلف :

" أمل " الأمل : الرجاء : خيره يأمل بالضم أملا بفتحتين ، و"أمله – أيضا " تأميلا، – وتأمل الشيئ نظر إليه مستبينا له (٣)

(١) القاموس المحيط جـ١ ص ٣٢٠ .
(٢) المصباح المنير ٣٠ .
(٣) مختار الصحاح ص ٣٦ .

ويلاحظ أن كلمة " تأمل " لم ترد فى أشعار الجاهليين إلا نادرا .

وكذلك لم ترد فى القرآن الكريم ولا فى الأحاديث النبوية الشريفة . وإنما وردت مرادفاتها أو ما يرتبط بمدلولها اللغوى الذى وضحته سابقا ، وقد يتجاوز معناها هذا المدلول اللغوى إلى افاق أخرى تعالج موقف الإنسان من الكون والطبيعة وقضية الإيمان المرتبطة بقوة الخالق ، ومحاولة الإنسان التعمق فى فهم هذه القدرة حيث يقف على عظمة الإله ويقترب حثيثا من درجة القرب والإلهام .

ودعوة القرآن الكريم الي التأمل والمنهج الإسلامى فى التفكير يقود المفكر إلى اليقين العقلى والاطمئنان النفسى ومبعث ذلك التسليم بوجود الحقيقة الكلية والاعتراف بقدرتها التي تكمن وراء كل حركة فى هذا الوجود .

أما التأمل عند المهجريين فلم يقدهم إلا إلى الحيرة الكونية والصراعات النفسية والارتطام بالواقع . الكابوس والمستقبل – الليل – وإن كانوا فى بعض الأحيان يجدون لذة فى هذا الصراع ولا يفتقدون شعورهم بالأمل في غد أفضل يعم الإنسانية كلها .

وكذلك لم يرد لفظ التأمل فى أشعار الإسلاميين والأمويين والعباسيين وما لحقها من عصور أدبية قبل العصر الحديث إلا نادرا . فاستعمال اللفظ فى الميدان الأدبى يعد من مستحدثات العصر الحديث فهو لم يستعمل من قبل بهذه الكثافة التى نراها فى أدب المهاجرين

ولا يظن نتيجة لهذا أن الأدب القديم خلامن الروح التأملية فليس هذا هو القصد ، والحقيقة التى لا يتطرق اليها الشك أن هناك الكثير من الأشعار العربية التى تتسم بالتأمل ويظهر ذلك جليا فى شعر أبى العلاء المعرى والمتنبى والشعراء الصوفيين من أمثال ابن الفارض والحلاج وابن عربى فأساليبهم تحمل إيحاءات كثيرة تنبىء عن ثراء فى المدلولات والتراكيب وعمق فى المضمون ومحاولة النفاذ إلى صميم الأشياء والولع بالجوهر لا بالعرض وباللباب لا بالقشور .

والعمليات العقلية التى تؤثر فى النتاج الأدبى كما حددها علم النفس هى : الادراك الحسى ثم التصور ثم التخيل ثم التفكير .

فالمرحلة الرابعة وهى التفكير وهى ما أقصده فى هذا البحث . والتأمل مرحلة مبكرة من مراحل الفكر . ويمكن أن أضيف مرحلة أخرى وهى اليقين .

فالتأمل الأدبى تسبقه ثلاث مراحل من العمليات العقلية المؤثرة فى النتاج الأدبى ، وهو يقف ما قبل النهاية بقليل .

فإما أن يصل المتأمل إلى الشاطىء . ويقترب من مرحلة اليقين ، وإما أن يفقد جميع حقائبه ويرتد فى انحدار مفاجىء إلى قرار الهوة السحيقة .

وكلمة " تأمل كثر دوراتها في الأدب الحديث ، وخاصة لدى المهجريين ، فلا يكاد يخلو أثر أدبى من تكرار هذه الكلمة ربما فى الصفحة الواحدة أكثر من مرة . وأكتفى بمثال واحد فى هذا الصدد .

فى كتاب " النبى " لجبران يجيب على الكاهن الذى سأله وقال ، هات حدثنا عن الدين . فيقول " المصطفى " :

وهل تكلمت اليوم فى موضوع آخر غير الدين أليس الدين كل ما فى الحياة من الأعمال " **والتأملات** "

أليس الدين كل ما فى الحياة مما ليس هو بالعمل ولا **بالتأمل** " (١)

إن حياتكم اليومية هى هيكلكم وديانتكم . لأنكم لا تستطيعون أن ترتفعوا **بتأملاتكم** فوق أعمالكم (٢) .

وإن شئتم أن تعرفوا ربكم فلا تعنوا بحل الأحاجى والألغاز ، بل " تأملوا " (٣) فيما حولكم تجدوه .

تأملوا (٤) جيدا تروا ربكم يبتسم بثغور الأزهار ثم ينهض ويحرك يديه بالأشجار ، يقول بودلير : ينبغى علينا لكى ننفذ إلى روح الأديب أن نفتش عن الكلمات التى يُكثر من استخدامها فى أعماله . إن الكلمة تكشف عن الفكرة التى تتسلط عليه .

وهذا لايعنى أن التأمل مقياسه تكرار الالفاظ . فقد نقرأ كتابا لم ترد فيه كلمة تأمل

---

(١) جبران – النبى ص ٨٨ .
(٢) المصدر السابق ص ٨٩ .
(٣) المصدر السابق ص ٩٠ .
(٤) المصدر السابق ص ٩٠ .

واحدة أو حتى ما يدور فى مادتها من ألفاظ . وهو برغم هذا مفعم بالتأمل والتركيز والتعمق فى معالجة موضوعه الذى خصص له .

(ب) المدلول الفنى للتأمل :

فى البحث السابق وهو دراسة المدلول اللغوى للتأمل ، وما يرتبط بهذا المدلول من معان وملابسات .. تعرضت للبحث عن هذا المدلول فى المعاجم اللغوية ، وقارنت معانيه باتجاه التأمل ومعانيه عند المهجريين ثم نوهت بندرة هذه الكلمة في الأدب العربى القديم ،وعدم ورودها فى القران الكريم ، وشيوعها فى العصر الحديث وخاصة لدى المهجريين . وخرجت من ذلك بنتيجة مهمة وان كانت جزئية وهى أن هذه الكلمة قد اقتحمت الحقل الأدبى الحديث واتسعت مضامينها كما سأوضح بعد ذلك .

وإيمانا منى بالقاعدة النقدية التى تقول : ينبغى لكى ننفذ إلى روح الأديب أن نفتش عن الكلمات التى يكثر من استخدامها فى أعماله – إن الكلمة تكشف عن الفكرة التى تتسلط عليه .

اخترت نموذجا لمدى دوران كلمة " تأمل" فى الأدب المهجرى من كتاب " النبى " لجبران خليل جبران .

وهذا لا يعنى أن المدلول اللغوى ينفصل عن المدلول الفنى . بل على العكس من ذلك تماما . فالشكل لا ينفصل عن المضمون .. واللغة هى لبنات العمل الأساسية . فمن مفرداتها يقيم الفنان البناء المعمارى لعمله الفنى ، وبمقدار ما يبعد الفنان عن التقليد بمقدار ما يستحق عمله الخلود لأن صاحبه أضاف شيئا جديدا ، ولم يكرر نماذج سبقته .

والفنان هو الذى يخلق لنفسه فعلا ولغيره بالقوة تجربة تأملية موحدة ذات طابع يتميز بدرجة كبيرة من الموضوعية ، وذلك عن طريق فرضه شكلا على مادته الخاصة .

والشاعر هو الذى يخلق تجربة من هذا النوع عن طريق تنسيقه الكلام تنسيقا موزونا .. وكل تنسيق للكلام موزون له هذا الأثر هو قصيدة .

والمدلول الفنى للتأمل أعنى به " التجربة التأملية " التى يخوضها الأديب ليعطينا من خلالها صورة صادقة عن أفكاره ومشاعره ونبوءاته وتصوره للعالم من حوله . والوقوف على مدى توافقه مع ما حوله من قيم أو رفضه لها وصراعه فى سبيل إيجاد عالم جديد مبدع

ونظرية الشعر فى جوهرها تعنى بالتجربة التأملية كما تعنى بقيم هذه التجربة وعناصر التجربة الشعرية متداخلة ، فالتجربة لا تنمو عن طريق إضافة جزء إلى آخر ولكنها تنمو عن طريق تغير كيفى باطن ، ولما كان التغير عضويا لذا لا تختفى المراحل المبكرة من التجربة بل تظل باقية فى مراحل التطور وهى فى طريقها الي التركيب والتنسيق الكامل فى النفس : " ويقول د/ عبد اللطيف خليف " إنها تنمو شيئا فشيئا نموا مطردا فى النفس ومن خلال الأداء الفنى لها (١) ويعرف روستر يفورهاملتون التأمل فيقول : ويمكننا أن نصف التأمل بأنه تأمل يتميز بالإعجاب ولكن الموقف التأملى ليس هو موقف الحكم . وذلك أن الحكم يتضمن وجود وعى بالموضوع مميزا عن الذات التى تمر بالتجربة .....غير أن التجربة التأملية فى صورتها الخالصة المثالية لا تحدث إلا بشكل متقطع(٢) ..

وموضوع التأمل : هو فى مضمون الشعور – ذلك المضمون الموحد الذى يتميز بدرجة كبيرة التركيب والذى يظهر من خلال الموقف الذاتى المتطور للشخص المدرك .

والتجربة التأملية : لابد لها من الوحدة العضوية . وبالتالى التجربة الشعرية التى هى أهم أنواعها لا بد لها من الوحدة العضوية لنموهـــا . ذلك النمو الذى يتغير فيه الكل تغيرا كيفيا دائما . والدكتور أحمد أبو شادى فى ديوانه من السماء يفضل الأسلوب الرمزى القصصى فى أداء التجربة فيقول : ((وقد يطيب لى بحكم ذلك أن أحبذ الأسلوب الرمزى والأسلوب القصصى وأن أتفاءل بتذوق أدباء العرب فى أمريكا لهما . وأن أتمنى أن يعاون نهجهما على اجتثاث الإيحاء اللفظى الفاسد وعلى تربية الملكة الشعرية حيثما يستطاع ذلك . فإن الشعر على أى حال طبع وموهبة لا بهرج وصناعة بل عقيدة فنية)) (٣)

والتجربة الجمالية عند روستريفورها ملتون مرادفة للتجربة التأملية . فالجمال إذن هو التأمل .. يقول : إن التجربة الجمالية الكاملة هى تجربة تأمل لا يشتت فيها اهتمامنا فيتحول إلى ماهر عملى (سواء كان ذلك " إيحاء بحلول السعادة " أو تأكيدا لأهمية واجب خلقى) أو يتحول الى ما هو فكرى ، وتتضمن كلمة فكرى هنا كل ضروب النشاط المتواضعة التى يمارسها العقل القلق (٤)

---

(١) من توجيهات د / عبد اللطيف خليف أثناء مناقشة هذا المبحث "
(٢) روستر يفورهاملتون . الشعر والتأمل ص ١١٥ .
(٣) د / أحمد زكى أبو شادى – ديوان من السماء ص ١٢ .
(٤) روستريفورهاملتون : الشعر والتأمل ص ١٢٤ .

والمهجريون قد خاضوا هذه التجربة بعمق ووعى دقيقين لا يغفلان عن المقاييس النقدية وان كانت ملكاتهم الصافية هي المقياس الأول . فتوفرت لأعمالهم " الكلية العضوية – واستعملوا الأسلوب القصصى فى أغلب تجاربهم التأملية الشعرية منها والنثرية . ولجأوا أحيانا إلى الرمز وخير دليل ملحمة " على بساط الريح ؛ لفوزى المعلوف وملحمة " ليليت " لرياض المعلوف ، وكتاب " مرداد " لميخائيل نعيمة . وقصائده الآتية :

النهر المتجمد ، من أنت يا نفسى ، التائه ، أنشودة ، الحائك ، الجـــوع ، وقصـــائد أبى ماضى الآتية : العنقاء – الطين – فلسفة الحياة – الطلاسم – الأسطورة الأزلية – نار القرى . وكتاب النبى لجبران . ويقتضى البحث أن ندرس ثلاثة أشياء ، نصل من خلالها إلى مفهوم كلى للتأمل فى الفن وهى :

١ – ماكنه الموقف الجمالى " التأملى " .

٢ – كيف ينشأ هذا الموقف ؟

٣ – أهمية التأمل .

(١) كنه الموقف الجمالى " التأملى : إن أسهل طريقة لدراسة طبيعة هذا الموقف أن ندرسه وهو فى مرحلة متقدمة من تطوره ويمكننا أن نصفه بأنه موقف الاهتمام النزيه الذى لا يهدف إلى غاية مادية – بل هو اندماج فيما يحس به الأديب وينفعل به .

ويقول د / عبد اللطيف خليف : " موقف الاهتمام الا يُشبع نزعة ... كاهتمام الشاعر ببيت من الشعر واهتمام المهندس ببيت من الطوب .. وهكذا فالاهتمام يشبع نزوعا خاصا "(١)

ويتعين أن نحدد ملامح هذا الموقف عن طريق السلب أو النفى فنقول : " انه موقف يخلو من الاستطلاع ومن المصلحة العملية على حد سواء فهو لا يسعى وراء تفسير أو مصلحة وإنما هو فى استمتاع يستقر على موضوعه الذى يبدو له فيه بالتدريج أحيانا معنى خلاب وجمال أخاذ " .

وللموقف أيضا ناحيته الإيجابية التي تحتاج إليها عملية التذوق ومن الواضح أنها مما يحتاج إليه أيضا للإبداع الفنى .

---

(١) من حديث دار بينى وبين الناقد فى ١٥ / ١١ / ١٩٨٠ م .

ومن الناحية السلبية نجد أن خلوه النسبى من الاهتمام بالفعل بالإضافة إلى ما يسوده من ركون إلى القضاء والقدر وكلاهما ينزع إلى إزاحة عبء الظروف عن كاهل الفرد ، ونجد أن هاتين الصفتين قد تفسران إلى حد ما . لماذا كان التأمل ميسورا عند الشرقيين أكثر مما هو عند الأوروبيين (١)

وإذا كان هذا التفسير للموقف التأملى جاء على لسان أحد النقاد الأوروبيين فإنه يؤكد أهمية دراسة التأمل فى الأدب عامة وعند المهجريين بصفة خاصة لما لهم فى هذا الاتجاه من باع طويل مثمر .

ويصف هاملتون تأمل الشرقيين بأن معظمه مجدب لأنهم عجزوا عن السيطرة على اهتمامهم . ويعلل ذلك بأنه لولا الاهتمام الإيجابى عند الفنان فقلبه على حد قول الشاعر بئر من الهدوء . ولكان موقفه بلا ضابط مثل موقف الأحلام لا يمكن أن يقوم له الأساس الذى تقوم عليه طاقة الخيال الإبداعية ، وهاملتون حينما يصف تأمل الشرقيين بالجدب يبعد عن الصواب كثيرا بل قل ليس فيه من الحقيقة شىء لأنه لم يعايش التجارب التى خاضها أدباء الشرق وبخاصة أدباء المهجر منهم فهم فى تأملاتهم يثيرون كوامن النفس البشرية ويندمجون فى تجاربهم التأملية اندماجا كليا يتم عن وعى دقيق وحس صادق وفكر منظم . وفى معرض الرد عليه أيضا يقول د / عبد اللطيف خليف : " ألا يفضى كل تأمل إلى رؤية أو رأى إن لم يفض إلى موقف جديد وكذلك يفعل الرومانسيون فهم يثيرون كوامن النفس الإنسانية ويبرزون ما خفى من أسرار الكون (٢) .

والدافع التأملى : هو الذى يحرك الطاقة الإبداعية فتنشىء العمل الأدبى ولذلك " ينبغى أن لا نخلط بين الموقف التأملى وبين الطاقة الإبداعية ومع ذلك فإن النزعة التأملية فى الذهن هى التى ينشأ عنها الدافع الإبداعى ، ذلك الدافع الذى يخلق أثناء تحقيقه لذاته موضوعات جديدة للتأمل .

والعلاقة بين الموقف التأملى والطاقة الإبداعية علاقة وثيقة كالعلاقة بين النبات والتربة.

---

(١) روستريفور هاملتون : الشعر والتأمل ص ١٠٧ .

(٢) من حديث أدلى به د / خليف إلى فى ١٥ / ١١ / ١٩٨٠ م .

(٢) ... كيف ينشأ الموقف التأملى ؟:

كثيرا ما نجد أن الذي يثير الموقف الجمالى هو أمر مألوف نراه من وجهة نظر غير مألوفة . لنفترض انك كنت تتسلق تلا بقصد الرياضة وكنت تعرف المنطقة الريفية المحيطة فلم يكن فيها جديد فى نظرك بل ربما لم تكن معتادا أن تعير المناظر الطبيعية كبير اهتمام ولكنك كنت تتوقف عن التسلق من برهة إلى أخرى وترقد مسندا ظهرك إلى التل ناظرا إلى المنظر الطبيعى تحتك فإذا بك تجد أن قمة الأشجار أقرب الى بصرك من جذوعها السميكة ، وإذا بالحقول تنتظم فى شكل جديد فيستحوذ المنظر على انتباهك وتسمح لعينيك أن تتأمل المنظر بكليته وربما دهشت لما فيه من وضوح وحيوية فتشعر بأنك لأول مرة ترى بحق ما هو معروض أمامك .

ومن هذه اللحظة يبدأ الدافع التأملى فى تحريك الطاقة الإبداعية التى ترى فى الشيء العادى أسرارا لا نهاية لها تخفى علي من لم تهبهم السماء قبسا من النار المبدعة ، والمهجريون يرون الأشياء من خلال شعورهم وليس من خلال أبصارهم المحدودة فقد تبدو الظواهر الكونية أو المشاهد اليومية عادية أمام الناس ولكنهم بتأملهم يعرفون كيف يستنبطون منها الكثير ، ويستنطقونها .

وخير شاهد على ذلك تجاربهم مع الطبيعة فقد اندمجوا فيها لدرجة الاتحاد والفناء وخلعوا عليها صفات الأحياء ، وتعلموا منها المبادىء ، وصاحبوها فى رحلاتهم للمعرفة والقيم الإنسانية .

فجبران فى كتابه " حديقة النبى " يقوم برحلة تأملية يربط فيها بين عالمى الإنسان والطبيعة ..فالطبيعة عنده هى المعلم ، وهى الأساس الذى تقوم عليه كل حكمة .

وهو يعبر عن شدة ارتباط فلسفته بمظاهر الطبيعة ويلخص فى الوقت نفسه هذه الفلسفة وهو يقول ... " خلوا من يبغى الحكمة يلتمسها فى الشقائق ، أو فى قبضة من صلصال أحمر " (١).

ويصف القروى بداية الموقف التأملى الذى يدفعه فى تصوير الطبيعة واستكناه أسرارها فيقول : " وقد يتجسم شعورى بصلة القربى بينى وبين هذه الأكوان فأنعطف على الشجرة

---

(١) جبران – النبى ص ٥٤ .

أعانقها ، والصخرة أضمها، والزهرة أناغيها ، والمرْجة أتقلب عليها ، وأمد ذراعى إلى السماء أحييها : وأبعث إلى الشمس بقبلاتى على أطراف بنانى والشمس بين روائع الطبيعة حبيبتى الأولى وفتنتى الكبرى ، وليس أبعث لنشاطى الجسدى والذهنى من الاستحمام بنورها " (١) .

– ولا يقتصر التأمل على ما تثيره مشاهد الكون الخارجية المتعددة بل " يمكننا أن نأخذ موقفا جماليا إزاء الموضوعات الحسية ففى كل مجالات الحياة يأتى الوقت الذى نتحررفيه من المصلحة سواء كان ذلك عن قصد أم نتيجة لضغط الظروف وحينئذ نهتم بالموضوع لذاته (٢) وتطبيقا لهذا رأينا المهجريين لا يقتصرون على الموضوعات الحسية ولكنهم تأملوا الحياة والوجود والنفس الانسانية والموت والخلود والعدم ، وقيم الإنسانية ومبادئه .

فشكر الله الجر يمجد الألم ويجعله سر الحياة بل سر الخلود . ويقول :

أنـــت لـــولا الهـــمّ لاتفقـــه مَعْنًـــى للوجُـــودْ .

أنـــت لـــولا الحـــزن لا تسْمـــَع أنغْـــَام الخُلُـــودْ .

لا ولا تسمـــع همـــس اللـــه فـــى قَصْف الرعـــود .

إن فـــى الحـــزن سُـــرورا لا تـــراه فـــى السُّـــرورْ .

إن فى الآلام لـــذّات لأربـــاب الشعـــورْ . (٣)

والتفكير فى الماضى مرتبط بالتأمل فى أغلب أحواله لأننا نتخذ من الماضى دروسا تفيدنا فى المستقبل .. وإيليا أبو ماضى يقول مؤيدا الحقيقة السابقة مخاطبا فيلسوفه المجنح " البلبل " :

طـــوباك أنـــك لاتفكـــر فى غد بـــدء الكـــآبة أنْ تفكـــر فـــى غد

– التجربة التأملية بين الموقف العملى والموقف الفكرى :

إن التجربة الجمالية الكاملة هى تجربة تأمل لا يشتت فيها اهتمامنا فيتحول إلى ماهو

(١) القروى : ديوان القروى جـ١ ص ٢٤ .
(٢) روستريفور هاملتون – الشعر والتأمل ص ١١٢ .
(٣) شكر الله الجر ديوان الروافد ص ٤٤ .

عملى سواء كان ذلك إيحاء بالسعادة أو تأكيداً لأهمية واجب خلقى ، أو يتحول إلى ما هو فكرى ، وتتضمن كلمة فكرى هنا كل ضروب النشاط المتواضعة التى يمارسها العقل القلق ، وموضوع التأمل هو مضمون الشعور . ذلك المضمون الموحد الذى يتميز به بدرجة كبيرة التركيب والذى يظهر من خلال الموقف الذاتى المتطور للشخص المدرك .

والجمال يوجد في موضوع التجربة الجمالية . فحينما تكتمل هذه التجربة ننسى أنفسنا ويكاد يختفى التمييز بين الذات والموضوع . إذ نفقد ذواتنا فى الموضوع ونستمتع بنشوة التأمل " بالمعنى الدقيق لكلمة نشوة " بعيدا عن الفعل وبعيدا عن التفكير والفعل فى أن يتبعا هذه التجربة وأن الموضوع الذى نتبعه ليس إلا الثورة الحاضرة لشعورنا .

إن من الصفات البارزة للتجربة الجمالية أن اهتمامنا يثار فيها على هذا النحو العميق الموضوعى الخالى من الأنانية . وهى صفة لا بد أن نعزو اليها جزءا من قيمة التجربة (١) .

وهذه الناحية الموضوعية من التجربة هى شىء يتميز كل التميز عن الفكرة التى تقول : " إن الجمال يوجد خارجا عنا " ويصف " هاملتون هذه الفكرة بأنها مضحكة - ويسخر من د / سانتيانا - الذى يضفى أهمية كبرى على هذه الفكرة المتناقضة فى جوهرها ويقول د / سانتيانا " إن الجمال عنصر إنفعالى أى لذة من لذاتنا ومع ذلك فنحن نعتبره صفة فى الأشياء (٢)

ويقول د / خليف : " إن قيمة الناحية الموضوعية نابعة من إدراكنا لقيمها ومشاعرنا نحو هذه القيم . ومن غير هذا الجانب الذاتى فى التجربة ، تصبح الناحية الموضوعية شيئا بلا قيمة ، فإدراكنا ومشاعرنا هى التى تهب الأشياء قدرها وقيمتها (٣) .

وفى ميدان التجربة الواعية يؤلف تنسيق ملكاتنا وتنظيمها وتنغيمها جزءا كبيرا من المتعة التى نجدها فى الفن وفى الشعر وفى التراجيديا ، .....جزءا كبيرا من أعمق طبقات إشباعنا العاطفى .

---

(١) انظر روستريفور هاملتون : الشعر والتأمل ص ١٢٥ - ١٢٧ .

(٢) جورج سانتيانا : الإحساس بالجمال ، ترجمة د / مصطفى بدوى ص ٧٣ نقلا عن كتاب : الشعر والتأمل لروستريفور هاملتون ص ١٢٧ .

(٣) من حديث د / خليف لى فى ١٥ / ١١ / ١٩٨٠ م .

(٣) أهمية التأمل . وسمات التجربة التأملية :

ومن التجارب الشعرية ما يتسم بالتأمل ولها قيمتها الأكيدة فى تنظيم الذهن . وهذه هى الناحية التى يوجد فيها تأثير الشعر من حيث هو شعر .

ومثل هذه التجربة التأملية ضرورى لأجل الحياة الغزيرة الشاملة ، وهو أيضا حلقة الاتصال بين عالم العقل وعالم الفن .

وللشعر قيمة فى تنظيم الذهن علي نحو مباشر وعلى نحو غير مباشر :

على نحو مباشر لأن التجربة الشعرية ذاتها تتميز بالنظام البديع ، وعلى نحو غير مباشر لأنه يشجع على إيجاد عادة التأمل فى الذهن .

والتأمل ضرورى : لا للفنان وحده ، وإنما لكل إنسان على نحو ما . فرجال الإدارة والسياسة ومن يشغلون المناصب الكبرى كلهم يحتاجون إليه إذا أرادوا أن يصبحوا أكثر من مجرد أناس ذوى كفاءة ضيقة ومقدرة تخلو من الخيال .

ولكن الفرق شاسع بين تأمل رجل الأعمال وتأمل الفنان . فرجل الأعمال حينما يتأمل ، فتأمله لا يتعدى العمل الحسى الذى يسيطر عليه أما الفنان فتأمله بدافع من إحساسه الباطنى الذى يجعل فكرته تزداد غزارة وعمقا .

والتأمل يحدث فى الحياة العادية وهو حاجة أساسية للإنسان إذ يبعد برهة عن صخب الفعل ويمنحه القدرة على الرؤية الصادقة والفهم والسيطرة علي الأشياء والتجربة يصيبها تغير عميق حينما تنتقل من حيز الفعل إلى حيز التأمل وهى تتميزبنوع خاص من الثبات والوحدة والصفاء .

فهى عالم يقوم بذاته يمكننا ان نجد فيه راحتنا – عالم كامل فى ذاته (١)

والتجربة التأملية : فى أسمى صورها ترتفع بمدارك الإنسان وتسمو بها عن التدلى إلى الأغراض الحسية التى تثيرها غرائزه الشهوانية .

ومن هنا كانت التجربة التأملية من أرقى التجارب الأدبية . إذ تتعاون فى تكوينها قوى الإنسان العقلية والشعورية والروحية والجمالية ، فتخرج مادة هى مزيج من القدرات السابقة كلها فترضى كل ذى فطرة نقية لأن صاحبها فيه من الفيلسوف حكمته ومن الشاعر رقته ، ومن الصوفى شفافيته ، ومن الفنان ذوقه ونبوغه .

---

(١) أنظر كتاب الشعر والتأمل ص ٢٣٠ .

ولا يهم بعد ذلك ان أغضبت ذوى الرغبات الذين لم يرتفعوا بأنفسهم فوق مرحلة الإحساس المادى المباشر .

وعلى هذا الأساس يمكن تفسير ظاهرة عدم اهتمام المهجريين بالمفاتن الجسدية للمرأة . وعدم تصويرهم لغرائزها وليس هذا بدافع من تبلد الشعور أو جفاف العاطفة وإنما هو تسام فوق الرغبات . واستبطان للحقائق الكامنة فى قلب المظاهر الملموسة ووراء الواقع المحسوس .

وقد كان ذلك نهجا للرومانسيين الغربيين جميعا وللوجدانيين العرب الذين اتجهوا إلي النفس الإنسانية فى أغوارها العميقة وإلى الطبيعة فى أسرارها الأزلية لاستلهام الحقائق الكامنة وراء المظاهر (١) .

(جـ) التأمل والشاعر العربى :

إن الشاعر العربى حين يغنى أغنية انما يكون بحضرة الحقيقة التى يكشف لنا عنها حتي تصير كأنها صاحبنا الذى نراه "(٢) .

والشعر كما يقول العقاد في مقدمة ديوان عبد الرحمن شكرى . الجزء الثانى : ((حقيقة الحقائق ، ولب الألباب ، والجوهر الصميم من كل ماله ظاهر فى متناول الحس والعقول ، وهو ترجمان النفس ، والناقل الأمين عن لسانها ، فإن كانت النفس تكذب فيما تحس به أو تداجى بينها وبين ضميرها فالشعر كاذب . وكل شىء فى هذا الوجود كاذب . والدنيا كلها رياء ولا موضع للحقيقة فى شىء من الأشياء)) .

ولعل أعظم ما حققه الشعر الحديث وما يزال يحققه فى كبار أعلامه ورواده أنه وصل العالم المنظور بعالم آخر غير منظور واحتفى بتجربة الخلق أيما احتفاء .

وجعلها أقرب إلى التجربة الدينية والصوفية . وأكد قدرة الروح المبدعة وانتصارها ورهبتها أمام أسرار الخلق وقدم الدليل بعد الدليل على أن الفن وبالأخص الشعر هو طريق النجاة من قسوة الموت وظلم السلطة وتخبط السياسة وغرور العلم . وتعنت الفلسفة وجشع البرجوازية وضياع أنقى وأبقى ما فى الإنسان وهو حياته الباطنة وقدرته على الخلق والتجدد والإبداع . تحت عجلات الآلية والنفعية والوضعية وزحام المدينة الكبيرة ولقد أعاد هؤلاء الرواد وتلاميذهم المباشرون للشاعر وظيفته الأولى وظيفة الساحر والمتنبىء والكاهن . وعلموه أن مهمته هى الشعر وحده ولا شىء سواه . ورسالته هى البحث عن حقيقة واحدة والتغنى بهذه الحقيقة .

---

(١) من حديث للدكتور خليف وهو يناقش معى هذا الفصل .

(٢) من أقوال ورد زورث نقلا عن د / محمود الربيعى فى كتابه : فى نقد الشعر ص ١٣٧ .

التى قد تتفاوت بين الواحد منهم والآخر بمهابة وإجلال . مستعينين برموز ملهمة موحية . إن الإنسان عندهم ليس هو الحيوان السياسى ولا القديس ولا هو المتصوف أو الفيلسوف . بل هو الفنان القادر على أن يجعل من الحياة نفسها فنا تستحق من أجله أن تعاش ويصل الكنوز الخافية فى أعماقه الفردية بكنوز الإنسانية وأسرارها ورموزها القديمة . ويثبت جدارته بهذه الإنسانية من خلال جدارته بالخلق والإبداع . والأدب العربى القديم لم يفقد هذه الخاصية التى لا تسلبه حقه من العمق والتأمل . ولكن لم يكن بهذه الصورة المكثفة التى أصبحت تشكل ظاهرة مستقلة فى الأدب الحديث . فقد جاءت مشاعر العربى القديم التى تحمل معتقدا خاصا ووجهة فلسفية معينة فى صورة أبيات متفرقة هنا وهناك .

أما الموضوعات المستقلة فلم تخص بها قصائد مستقلة لأن طبيعة القصيدة حينذاك ماكانت لتسمح بذلك . فالبيت كان وحدة القصيدة وكثيرا ما حمل الشاعر البيت الواحد شحنة هائلة من اختبار روحى عميق وتجربة إنسانية فذة ندهش بها إن عثرنا عليها . إنما هى وليدة ظروف حتمية لو لم تكن لما كانت (١) .

والحكم السابق حكم عام .. وبشىء من التخصيص سأحاول القاء نظرة فاحصة موجزة علي التيار التأملى فى الشعر القديم فى عصوره المختلفة .

العصر الجاهلى :

يتصور جل الباحثين أن الشعر الجاهلى شعر حسى غليظ يعنى بوصف المحسوسات التى يراها الشعراء أمامهم فى الصحراء المفتوحة . وليس لذلك أثر من آثار الفكر والعقل . أما إذا وجدنا شيئا نسميه الحكمة فهو لا يعدو أن يكون تعبيرا عن خبرة الأيام المباشرة التى تحتاج إلى ثقافة .

وسوف تكون كل دراسة تجرى على هذا المنوال ضربا من التكرار غير المفيد وسوف تكون غير مستقيمة أيضا . لأن حياة العصر القديم أعمق مما يجرى على أقلامنا حتى الآن .

وقد شهد هذا العصر صراعا روحيا قويا لم يقدر تقديرا ملائما . وإن نشأة الإسلام العظيم فى نهاية هذا العصر لا يمكن أن تهون من دلالتها ومغزاها ، إنها تعنى بكل اختصار أننا أمام عصر يضطرم فيه القلق ويبلغ ذروته . إننا أمام مجتمع تشغله أسئلة أساسية شاقة عن مبدأ الانسان ومنتهاه ومصيره وشقائه وعلاقته بالكون .

إن الشعر الجاهلى ينافس أى شعر آخر إذا أحسنّا قراءته . ولو أحسنا قراءته لبدأ أمامنا وافر الحظ من العمق والثراء (٢) .

---

(١) ثريا كرم ملحس . القيم الروحية في الشعر العربى قديمه وحديثه ص ١٦٤ .

(٢) د / مصطفى ناصف . قراءة ثانية لشعرنا القديم ص ٤٩ – ٥٠ .

وللرأى السابق وجاهته وحظه من القبول لأن الشعر الجاهلى عبر أصدق تعبير عن نفسية البدوى وبيئته . ووضح موقفه من الصراعات التى تموج فى داخل بيئته وخارجها وانما الذى أريد أن ألفت النظر إليه كما وضحت سابقا هو أننا لم نعثر فى الشعر الجاهلى على نصوص مستقلة ذات نزعة عقلية خاصة بالنفس الإنسانية أو بمشكلة الوجود والعدم أو الخير والشر .

وبرغم أنهم كانوا على علم بمعرفة النجوم والكواكب وأوقات طلوعها وغروبها فهم لم يبحثوا فى الظواهر السابقة حبا فى استكناه أسرارها وكشف علاقات جديدة فيما بينها وبين الإنسان بل لغرض العيش والقوت .

وفى النظرة العقائدية لم يستطع الشاعر الجاهلى أن يرتقى إلى آفاق محلقة تبعده عن الارتباطات البيئية والمشاعر الحسية فى نظرته إلى معتقده.

وذلك لأن آلهتهم كانت محسة مجسدة تدركها الأبصار كما تدرك غيرها من الكونيات الأخرى . فلم نر شاعرا جاهليا ينظم فى الإله قصيدة تأملية خاصة . بل كان يذكره عرضا بفكرة تتسم بالتسليم المطلق دون أن يبحث فى جوهره وصفاته وتأثيره فى هذا الوجود وانعكاس ذلك على تصرفات الإنسان .

وجل ما نجده عن فكرة العقيدة آراء متفرقة هنا وهناك بعضها متأثر بالآراء الإسرائيلية وبعضها بالمسيحية .

والرضا البعيد عن التعمق والتأمل كان السمة الغالبة على الشعر الجاهلى فى نظرته إلى الله .

فلبيد بن ربيعة يقول :

فاقنـــع بما قســـم المليـــك فإنمـــا قســـم الخلائـــق بيننا علامهـــا

– وربما تسمو النظرة إلى الله فتتسم بروح تصوفية وتستشرف الغيب وتطوى المسافات والأزمنة فتلمح أن خالق الكون هوالحق ، ونعيم الدنيا لا عمر له ولا بقاء ، يقول لبيد :

ألا كـــل شىء ما خـــلا اللـــه باطـــل وكـــل نعيـــم لا محالـــة زائـــل

والأمثلة كثيرة لا تحصى . ولم يعدم العصر الجاهلى ظهور ما يمكن أن نسميهم حكماء وإن كان شعرهم لم يرتق إلى آفاق التأمل الذى شهده العصر الحديث ..

ومن هؤلاء زهير بن أبى سلمى القائل :

لسان الفتى نصف ونصف فؤاده ... فلم يبق إلا صورة اللحم والدم

وهو المشهور بحكمه الكثيرة فى أشعاره ومنها :

ومن يك ذا فضل فيبخل بفضله ... على قومه يستغن عنه ويذمم
ومهما تكن عند امرىء من خليقة ... وان خالها تخفى على الناس تعلم

ومنهم ذو الإصبع العدوانى القائل :

كل إمرىء راجع يوما لشيمته ... وان تخلق أخلاقا إلى حين

ومنهم طرفة بن العبد القائل :

والاثم داء ليس يرجى برؤه ... والبر برء ليس فيه معطب
والصدق يألفه الكريم المرتجى ... والكذب يألفه الدنىّ الأخيبُ

ومنهم : أكثم بن صيفى صاحب الحكم النثرية المأثورة .

ومنهم : عامر بن الظرب .

ويعد عامر من فلاسفة العرب فى الجاهلية فقد بحث فيما وراء الطبيعة حبا فى استطلاع المعرفة ورغبة فى الوقوف على ما تطيب به نفسه ويقره عقله . وقد وصل إلى الحق من طريق العقل غير متأثربدينه ولا بأهله وعشيرته واستدل على وجود الله بقوله :

" إنى ما رأيت شيئا قط خلق نفسه ولا رأيت موضوعا إلا مصنوعا ولا جائيا إلا ذاهبا ولو كان يميت الناس الداء لأحياهم الدواء " .

ومنهم : زيد بن عمرو بن نفيل . وهو ابن عم سيدنا عمر بن الخطاب . لم يرض عن عبادة الأوثان ولم يطب لفكره منهج اليهود ولا النصارى واتجه إلى الله يلتمس معرفته من هذا الكون ودلائله وصار يجدف بعقله ويسعى بتفكيره حتى وصل إلى الحق على الوجه الحق .

فأسلم وجهه لله وترك ما سواه وقال مؤكدا ارتباط الكون بخالقه والطبيعة مجلى الإله

الصادق :

وأسلمت وجهي لمن أسلمت ... له الأرض تحمل صخرا ثقالا
دحاها ولما استوت شدها ... سواء وأرسى عليها الجبالا
وأسلمت وجهي لمن أسلمت ... له المزن تحمل عذبا ذلالا
إذا هي سيقت إلى بلدة ... أطاعت فصبت عليه سجالا

ومنهم :" أمية بن أبى الصلت ".

قرأ التوراة والإنجيل وإتسمت نظرته باليقين والإخلاص فى العقيدة وهو يؤكد أن الله نور أزلى متجدد وحوله تتوقد أنهار من النور . وهذا خيال صوفى بارع سابق لزمانه ولا عجب إذا عرفنا أنه كان يتمنى أن يكون هو النبى المنتظر .

وفى أشعاره ربط بين مظاهر الطبيعة وقدرة الله . والإيمان نتيجة هذه العلاقة الحتمية . يقول :

وقولا له من يرسل الشمس غدوة ... فيصبح مامست من الأرض ضاحيا
وقولا له من ينبت الحب فى الثرى ... فيصبح منه البقل يهتز رابيا
ويخرج منه حبه فى رؤوسه ... وفى ذاك آيات لمن كان واعيا

وقد قال عنه المصطفى عليه السلام : آمن شعره وكفر قلبه .

ومنهم "قس بن ساعدة" استدل على وجود الله بالأثر على المؤثر وبالصنعة على الصانع ومن أشعاره قوله :

يابالى الموت والأموات فى جدث ... عليهم من بقايا بزهم خرق
دعهم فإن لهم يوما يُصاح بهم ... كما ينبه من نوماته الصعق

– وفى العصر الإسلامى : يتغير الشعر بصورة ملحوظة . وتكاد تختفى صورة شاعر القبيلة أو شاعر العصر . وذلك لظهور القرآن الكريم الذى شغل عقول الناس وعواطفهم ، وفى القرآن الكريم أروع نموذج للتأمل الخلاق المثمر فى ظواهر الكون وبواطنه وفى النفس الإنسانية والحياة . والبقاء والعدم ، وكل ما يموج به الوجدان البشرى من انفعالات .

والتأملات القرآنية لها اتجاهات عديدة منها :

أ - **لفت الأفكار والعواطف إلى مشاهد الكون** : وذلك يتمثل فى الدعوة إلى التفكير فى خلق السموات والأرض وما فيها من نبات وحيوان ونجوم وكواكب ، ورياح مسخرة بينهما . ويسوق القرآن دلائل عظمة كل ظاهرة ويترك للعقل حرية التفكير وللقلب صدق المعتقد .

ب - **الأمثال التى يضربها الله للناس** : وذلك حين نتأمل حصاد عمل الكفار فى سورة النور وسوء العاقبة الذى لحق بأهل القرية الذين فسقوا فيها فحق عليهم القول وأذاقهم الله لباس الجوع والخوف . وقصة التحدى التى تنبىء عن عجز الكفار عن خلق الذباب .

جـ - **القصص القرآنى** : وهو يرمز إلى معان هى غاية في الدقة والعمق .

فالعالم الفنى الذى تموج به قصة يوسف هو فى غاية المتعة والثراء والتأمل والجو الرائع الذى يحيط بقصة آدم ، وجو العظمة الذى تبعثه قصة سليمان وداود ، حيث تتحدى الحقيقة كل خيال ، وتجد العقول والعواطف مسرحا لرياضة ذهنية وجدانية تتأمل من خلالها هذه الأجواء الخلابة التى لا يمكن للشعر أن يرقى إليهافى أى عصر من العصور ، وقصة أهل الكهف وموسى وعيسى ... وغيرها تشير إلى مكانة التأمل القرآنى الذى يقود العقل والقلب إلى مرفأ اليقين وصواب المعتقد ولا يحطم داخل الإنسان ويشعل فى أغواره حرائق الشك ويفجر براكين الألم والسأم .

ولذلك وجد الشعراء الإسلاميون والأمويون أن القرآن الكريم خير نموذج يحتذى بل ويدافع عنه . إلا أنهم برغم ذلك ظلوا أقزاما أمام شموخ أفكاره وأساليبه ولم يستفيدوا من اتجاهات التأمل فى هذا الكتاب المبين . ولم يتعمقوا فى بحثه ودرسه وانما اكتفوا بموقف الدفاع عنه فى أساليب خطابية مباشرة كما فعل شعراء الرسول وشعراء آل البيت عامة ومنهم الكميت ودعبل والخذاعى .

ويحق لى أن أقول إن ظهور الدين الإسلامى لم يكن عائقا للشعر عن مسيرته ولم يحجر علي الناس سماع الشعر أو انشاده .

وإنما الشعراء هم الذين ظلوا متمسكين بالنهج القديم فى القصيدة شكلا ومضمونا ولم

تتفتح مداركهم لما فى هذا الكتاب من اشراقات ورموز وإيحاءات ثرية تظل حديدة معطاء برغم تعاقب الأزمان وتغير البيئات وتلون المشاعر وتبدل الأفكار .(١)

– وفى العصر العباسى :

انتشرت الفلسفة واختلط العرب بغيرهم من الأمم واقتبسوا ثقافات أجنبية ، لكن تأثير الفلسفة فى الأدب لم يظهر إلا فى نواحى قليلة معينة ، وقد كان هذا التأثير كما قال دى بور : سطحيا فى أغلب الأحوال ويتجلى هذا بنوع خاص فيما روى عن الشعراء من أقوال تدل على روح الشك ، ومن سخرية بأقدس الأشياء كما يتجلى فى تمجيدهم للشهوات الحسية ، ولكننا إلى جانب هذا نجد حكما وتفكيرا جديا وآراء صوفية تدخل جميعا فى الشعر العربى (٢)

والمتنبى وأبو العلاء يتضمن شعرهما كثيرا من الحكم وقد تميزا بالاتجاه الفلسفى فى أشعارهما .فالمتنبى ثبت أنه أثر فى أبى العلاء : بفكره وفلسفته .

ويذكر د / طه حسين أن البيتين :

ويدفن بعضنا بعضا ويمشى ... أو اخرنا على هام الأوالى

وكم عين مقبلة النواحى ... كحيل بالجنادل والرمال

قد أثرا فى التشاؤم العلائى وما نشأ عنه من فلسفة تأثيرا عميقا .

وقد استغل أبو العلاء هذا المعنى وصوره فى أروع الشعر فقال :

صاح : هذى قبورنا تملأ الرحـ ... ـب فأين القبور من عهد عاد

خفف الوطء ما أظن أديم الأرض الا من هذه الأجساد

وقبيح بنا وان قدم العهد هوان الآباء والأجداد (٣)

---

(١) أنظر كتاب : من القيم الإسلامية فى الأدب العربى . للمؤلف . مطابع جامعة الزقازيق .
أنظر كتاب : الأدب الإسلامى بين النظرية والتطبيق للمؤلف دار الأرقم بالزقازيق .

(٢) ت ج دى بور . تاريخ الفلسفة فى الإسلام ص ٧٦ . نقلا عن ثريا كرم ملحس فى كتابها القيم الروحية فى الشعر العربى ص ١٦٥ .

(٣) د / طه حسين : مع المتنبى جـ٢

وكان المتنبى واسع الثقافة . وقد وقعت أنظاره بغير شك على الثقافات اليونانية المترجمة إلى العربية ، كما أنه اجتمع بالمعلم الثانى " الفارابى " فى بلاط سيف الدولة وتتلمذ لآرائه أو عرف على الأقل طرفا منها ، وألم ببعض اتجاهاتها ،

ولما كان المتنبى ميالا إلى كل غريب مسارعا إلى كل ابتكار جديد ، لذلك رأيناه الوحيد بين شعراء سيف الدولة الذى اصطنع الاتجاه الفلسفى فى شعره ،

وكعادة الشعراء القدامى ليست هناك قصائد بعينها نحا فيها المتنبى ناحية الفلسفة وإنما هى أبيات متناثرة هنا وهناك (١) .

والاتجاه الفلسفى فى شعر المتنبى ناشىء عن رغبته فى الكشف عن حقائق الأشياء وبواطن الأمور فمذهب اللذة الذى نادت به الأبيوقورية والمانوية نرى المتنبى يؤمن به فيقول :

تمتع من سهاد أو رقاد ... ولا تأمل كرى تحت الرجام
فليس لثالث الحالين معنى ... سوى معنى انتباهك والمنام

والبيتان السابقان ينسبهما " عبد القادر البغدادى المتوفى سنة ٢٩٣ هـ إلى مذهب التناسخ ويشير إلى أن المتنبى كان متأثرا بمذهب السوفسطائية حين قال :

هون على بصر ماشق منظره ... فانما يقظات العين كالحلم

ومتأثرا بمذهب القضائية فى قوله :

نحو بنو الدنيا فما لنا ... نعاف ما لا بد من شُربْه
فهذه الأرواح من جوه ... وهذه الأجسام من تُربْه

وينسبه إلى مذهب النفس الناطقة لقوله :

تخالف الناس حتى لا اتفاق لهم ... الا على شجب والخلف فى الشجب
فقيل تخلد نفس المرء باقية ... وقيل تشرك جسم المرء فى العطب (٢)

---

(١) م.ن.ص ٤٣٣ .

(٢) خزانة الأدب ص ٢٨٣ نقلا عن د / مصطفى الشكعة فى كتابه السابق ذكره .

وأبو العلاء من أعمق الشعراء العرب فكرا ويمكن أن نسميه فيلسوفا لأن الاتجاه الفلسفى فى شعره واضح إلى حد لا يقبل الشك . وهو فى هذا المجال أشهر من أن ينوه به . ففلسفته القائمة على رفض الواقع الخارجى ومعالجة مشاكل الذات وهموم النفس وفلسفة مواقف الحياة معروفة .

ومن أشعار أبى العلاء الفلسفية التأملية قوله موضحا رأيه فى الروح :

والروح شىء لطيف ليس يدركه ... عقل ويسكن من جسم الفتى حرجا
سبحان ربك هل يبقى الرشاد له ... وهل يحس بما يلقى إذا خرجا
وذات نور لأجساد يحسنه ... كما تبينت تحت الليلة السرجا
قالت معاشر بيقى عند جثته ... وقال ناس إذا لاقى الردى عرجا(١)

ويقول :

والروح أرضية فى رأى طائفة ... وعند قوم ترقى فى السماوات
تمضى على هيئة الشخص الذى سكنت ... فيه الى دار نعمى أو شقاوات (٢)

والفكرة الفلسفية التى توحى بأن الجسد سجن النفس طافت بذهن أبى العلاء فعبر عنها وعد الموت انعتاقا للنفس وبدء حريتها . والنفس عنده مرادفه للروح يقول :

والروح طائر محبس فى سجنه ... حتى يمن رداه بالاطلاق (٣)

والنفس عنده غير خالدة فهى تفنى بفناء الجسد وفى هذا تناقض مع رأيه السابق يقول :

وجسمى شمعة والنفس نار ... اذا حان الردى خمدت بائقة(٤)

ومن الذين لمع بريقهم فى ساحة التأمل الأدبى الفلاسفة الذين عبروا عن أفكارهم بلغة شعرية محلقة وهؤلاء قليلون أمثال :

ابن سينا والغزالى ، والفرى والفارابى وابن طفيل الغنوى .

---

(١) ديوان العلاء المعرى . لزوم مالا يلزم جـ١ ص ١٩٧ .
(٢) جـ ص ١٧٤ .
(٣) م ن ص ١٤٥ .
(٤) م ن جـ٢ ص ١١٢ .

وابن سينا كان الرائد لفلاسفة الإسلام وشعرائه المتأملين فى النفس الإنسانية وعينيته الرائعة كانت مجال معارضة كثيرة من الشعراء اللاحقين وهيهات أن يصلوا يقول :

هبطت إليك من المحل الأرفع ... ورقاء ذات تعزز وتمنع
محجوبة عن كل مقلة عارف ... وهى التى سفرت ولم تتبرقع
وصلت على كره اليك وربما ... كرهت فراقك وهى ذات تفجع

ويقول :

هذب النفس بالعلوم لترقى ... وذر الكل فهى للكل بيت
إنما النفس كالزجاجة والعلم ... سراج وحكمة الله زيتُ
فاذا أشرقت فانك حى ... واذا أظلمت فانك ميت

ويقول ابن سينا :

ارجع إلى نفسك وتأمل ... هل تغفل عن وجود ذاتك ولا تثبت نفسك ما عندي أن هذا يكون للمستبصر ، حتى إن النائم فى نومه ، والسكران فى سكره ، لا يعرف ذاته عن ذاته ، وإن لم يثبت تمثله لذاته فى سكره (١). وقصة سلامان وأبسال " التى ذكرها ابن سينا فى كتاب الإشارات أحسن رمز ، لا بل أوضح تبين سعادة النفس ، ودرجاتها ، وكيفية محاربتها للشهوات والتجرد عنها .. وللقصة تأويلات كثيرة (٢). ..... منها أن سلامان هو النفس الناطقة ، وأبسال هو العقل النظرى، أو هو درجة النفس فى العرفان ، وامرأة سلامان هى القوة البدنية الأمارة بالشهوة والغضب ، وعشقها لأبسال هو ميلها إلى تسخير العقل .. إلى غير ذلك من التأويلات التى تدل مع غيرها من القصص الأخرى والرسائل المنسوبة إلى ابن سينا مثل رسالة الطير على أن النفس لا تنال السعادة الحقيقية إلا بإعراضها عن الشهوات وتركها الملذات وتطلعها إلى الملأ الأعلى ، لأن لذة التفكير والتأمل تشبه لذة العبادة.

وابن طفيل فيلسوف المغرب كان أديبا ناثرا وشاعرا ممتازا ذا فكرة عميقة فلسفية هادفة .

---

(١) ابن سينا . الاشارات ص ١٢١ نقلا عن د / جميل صليبا فى كتابه من افلاطون إلى ابن سينا ص ١٠٤

(٢) أنظر كتاب : من أفلاطون إلى إبن سينا لمزيد من الإيضاح ص ١٣٧ – ١٤٠ وكتاب من الفلسفة الإسلامية ص ١٦٥ ، طاهر عبد المجيد .

يقول فى صلة الروح بالبدن :

نـــور تـــردد فـــى طـــين إلى أجـــل فانـــحاز علـوا وخـلى الطـــين للكفـــن
يا شد ما افترقـا من بعـد ما اعتلقـــا أظنـــهـا هدنـــة كـانت علـــى دخـــن
ان لم يكن فى رضا اللـه اجتـماعهمـا فيـالـهـا صفقـة تمـت علـــى غـــبن

وقصة " حى بن يقظان" تصور آراءه فى أهم المشاكل الفلسفية بل انها تصور مذهبه الفلسفى الكامل بغاية الدقة والإحكام (١) .

وهذه القصة وغيرها من القصص الفلسفية هى فى قمة المتعة العقلية والإشباع العاطفى والفن الأدبى الذى أهملته الأوساط النقدية فى العصر العباسى والأندلسى أيضا ، والنُّفرى لا نستطيع أن نغفل فى هذا المجال كتابه : المواقف والمخاطبات "إذ ينطوى على خيال محلق ورمز شفاف وفكر دقيق يوحى بعظمة صاحبه وإخلاصه لفنه .

والشعراء الصوفيون وقفوا حياتهم على التأمل ، وجعلوا من حب الإله فلسفة خاصة ووضعوا لها رموزا تربطها بحياة العاشقين .

وفى أشعارهم عبروا عن فلسفتهم فى وحدة الوجود ونظرية التناسخ وفلسفة الحب الإلهى والاتحاد بالله والفناء فيه ..

– والشعر الصوفى حلقة ماسية فى أدبنا العربى لم يحظ باهتمام النقاد والدارسين حتى حسبه الناس أورادا تقال فى حلقات الذكر فقط .

وهو فياض بالأحاسيس الصافية ، زاخر بالعوالم الثرية ، يخاطب وجدان الإنسان التواق إلى الانعتاق ... إنه جدير بالتحليل والقاء الأضواء الجديدة عليه واستخلاص مبادىء نظرية نقدية جديدة ولتكن هذه النظرية هى " لغة الإشراق والكشف " وهى تحتاج إلى تضافر جهود عدة ومعاونة علم النفس والفلسفة والاجتماع والعقائد وعلم الصوتيات واللغويات والموسيقى .

ومن أشهر الشعراء المتصوفين : ابن الفارض ، ومحيى الدين بن عربى

– فابن الفارض يقول فى لغة شعرية رامزة يسبق بها أحدث ما تمخض عنه العصر

---

(١) أنظر : القصة كاملة : فى كتاب حى بن يقظان لابن طفيل تقديم وتحقيق فاروق سعد .

الحديث من نظريات في صياغة الشعر كمبدأ تراسل الحواس أو المذهب الرمزى الذى تختلط فيه المدارك فالعين تسمع والأذن ترى والسمع ينطق واليد تتكلم واللسان يبطش .. وهذا ما عبر به ابن الفارض بفطرة نقية خالصة ،يقول:

وكلى لسان ناظر مسمع يد ... لنطق وادراك وسمع وبطشة
فعينى ناجت واللسان مشاهد ... وينطق منى السمع واليد أصغتِ
وسمعى عين تجتلى كل مابدا ... وعينىَ سمع إن شدا القوم تنصت
ومنِّىَ عن أيد لسانى يدُكما ... يدى لى لسان فى خطابى وخطبتى
كذاك يدى عين ترى كل مابدا ... وعينى يد مبسوطة عند بسطة
وسمعى لسان فى مخاطبتى كذا ... لسانى فى إصغائهِ سمْعُ مُنصتِ (١)

ويقول مؤكدا عقيدته فى الاتحاد والفناء :

كل من فى حماك يهواك لكن ... أنا وحدى بكل من فى حماكا
يحشر العاشقون تحت لوائى ... وجميع الملاح تحت لواكا (٢)

وابن عربى صاغ أفكاره فى شعر رمزى غامض يقترب من السحر إلا أنه يحرك الطاقات الكامنة فى النفوس والعقول .

فالعالم عنده خيال ورؤيا يجب تأويلها ، لأنه خيال يرمز إلى حقيقة يقول :

إنما الكون خيال ... وهو حق فى الحقيقه
والذى يفهم هذا ... حاز أسرار الطريقه

وهو يؤمن بالحب دينا شاملا للإنسانية كلها فيقول :

أدين بدين الحب أنى توجهت ... ركائبه فالحب دينى وايمانى (٣)

---

(١) أبن الفارض ، ديوانه ص ٥٢ .
(٢) م – ن ص ٩٣ .
(٣) أبن عربى ترجمان الأشواق ص ١٩٦ .

وفى العصر الحديث :

ظهرت المدارس الشعرية وواكبتها المذاهب النقدية . وفى مقدمة هذه المدارس مدرسة الديوان ومدرسة المهجريين .

وقد آمن أصحاب المدرستين بأن الشعر ليس مجرد وصف أو نقل أو محاكاة بل هو على الدوام قوة مبدعة خلاقة وهو يبدع من ناحيتين : إنه يبدع أو يصنع أشياء لم تكن موجودة من قبل . وهو يبدع كذلك بالمعنى الأعمق لهذه الكلمة عندما يصقل العنصر الخلاق الكامن فى التجربة نفسها ويسمو به .

وأصبح للعقل دور كبير فى إنجاح التجربة الشعرية بل أصبح لزاما على الشعراء أن يتسلحوا بكل ما أنتجه العصر من نظريات علمية وفلسفية واقتصادية حتى يقاوموا غرور العلم وطغيان المادة – عليهم أن يكتشفوا أبعادا جديدة للفتهم ومشاعرهم وأن لا يتركوها متخلفة عن إيقاع العصر ونبضه الحاد .

وربما كانت قصة الشعر الحديث والشعر المهجرى هى قصة اكتشاف الباطن واستعمار الأعماق .

وانطلق المهاجرون من أرضهم التى ضاقوا بأوضاعها وراحوا فى غربتهم يعرضون على العالم كنوزا لم يتوقعها . وفى مقدمة هؤلاء ميخائيل نعيمة الذى يقول معبرا عن حيرته :

نحن يابْنى عسكر قد تاه فى قفر سحيقْ
نرغب العَودْ ولا نذكر من أين الطريقْ
فانتشرنا فى جهات القفر نستجلى الأثرْ
نسأل الشمس عن الدرب ونستفتى الحجرْ
وسنبقى نفحص الآثار عن هذا وذاكْ
ربما ندرك أن الدرب فينا لا هناكْ
وسنبقى نهجع الليل وفى الصبح نفيقْ
ربما نلقى منانا .. ربما نلقى الطريق(١)

(١) ميخائيل نعيمة : همس الجفون ص ٤٦ .

أسباب ضعف التأمل فى الشعر العربى القديم :

بعد تتبعى السابق لمسيرة التأمل فى الشعر العربى واستخلاص نتيجة مهمة وهى ضعف تدفق التيار التأملى فى شعرنا القديم . وهذه النتيجة لا تمنع من أن يكون هناك بعض الشعراء الذين قوى ذلك التيار عندهم .

ويمكن تلخيص العوامل التى شاركت فى هذا الضعف فى الظواهر الآتية :-

(١) ظروف البيئة وطريقة التفكير :

ان العوامل الطبيعية والاجتماعية لها أكبر الأثر فى تكوين عقلية الشعوب . والظروف المعيشية التى عاشها العرب أثرت فى مسار تفكيرهم . ونتيجة لهذا استنفد العرب جهدهم فى السعى وراء الطعام والمأوى . ولم يتوفر لهم الوقت الذى يفرغون فيه لمراجعة ما يدور فى نفوسهم وتأمل ما حولهم وبلورته فى فلسفة ذاتية واستنباط المعانى الإنسانية منه .

وجاءت القصيدة العربية صورة لحركة الشاعر اليومية فقد جعلها لوحة ناطقة بحياته وترجمانا عن تطلعاته المرتبطة بالبيئة أوثق ارتباط.

(٢) بناء القصيدة :

والقصيدة العربية تفردت بشكل خاص يعتمد على وحدة القافية والوزن . ولا شك أن هذا الايقاع الموحد في كثير من النماذج جعل البيت هو وحدة القصيدة . والبيت يحمل كل ما يسكبه الشاعر من فكرة أو تجربة . وكثيرا ما استقرت فيه دون أن تلتفت إلى غيره أو تتعداه . وينتقل الشاعر بعد ذلك إلى بيت آخر وربما حمل فكرة جديدة وتجربة جديدة .. ولذلك فقدت القصيدة وحدتها العضوية التى هى من أهم سمات القصيدة التأملية والاعتماد على روى واحد فى القصيدة حال فى كثير من المواقف الفنية بين الشاعر وحريته فى الانطلاق بفكاره ومشاعره إلى آفاق جديدة . . فكأن الروى فى البيت قفل يفتح الأبواب ثم يغلقها . وهذا لا يمنع الجودة فى العمل الفنى والوحدة العضوية إذا استطاع الشاعر أن يسيطر على أدواته الفنية ويعطى لتجربته صبغة إنسانية شاملة ونظرة مستقلة إلى الكون والحياة .

(٣) **التكسب بالشعر** : كان لسيطرة الخلفاء .. وحاجة الشعراء إلى ما يكفيهم مؤونة العيش أثر فى بعد الشعراء عن التأمل الباطنى .. ومحاولة النفاذ إلى صميم الأشياء لأن الخلفاء أغرقوهم ببريق الذهب . فأصبح أقصى ما يتمناه أى شاعر هو الوصول إلى بلاط الخليفة ... وإلقاء قصيدته فى حضرته .. ولذلك حرص على إضفاء كل ما يستطيع اجتلابه من صفات على الممدوح رغبة فى الندى الذى تسيل به راحة الأمير .

وقد نبه إلى هذا الخطر الذى أحدق بالشعراء الامام عبد القاهر الجرجانى فى معرض دفاعه عن الشعر واعطاء التصور الحقيقى له ..ويهاجم من يتصور ان الشعر ليس إلاملحة أو فكاهة أو بكاء منزل .

فيقول : أما الشعر فخيل إليها أنه ليس فيه كثير طائل . وان ليس الا ملحة أو فكاهة أو بكاء منزل ، أو وصف طلل ، أو نعت ناقة أو جمل ، أو إسراف قول فى مدح ، أو هجاء وأنه ليس بشىء تمس الحاجة اليه فى صلاح دين أو دنيا (١).

– ومما أضعف دور الشعر التأملى العميق موقف الفقهاء من الشعر الصوفى ومن الصوفيين أنفسهم فقد اتهموا كثيرا منهم بالخروج عن تعاليم الشريعة ، ولم يصغوا إلى نفثات صدورهم ونبضات قلوبهم المفكرة فى عظمة الكون وخالقه ، والباحثة عن سر السعادة فى هذا الوجود . وكان لهذا الموقف دوره فى إخماد هذه الأصوات الفريدة لما للفقهاء من مكانة فى قلوب عامة الناس بل وفى قلوب الخلفاء وأصحاب الشأن . ووصل الأمر فى بعض الأحيان إلى الزج ببعضهم فى غياهب السجون .. وأين شعر أبى نواس وغيره من فحول الشعراء من قول : أبى بكر محيى الدين بن عربى الحاتمى :

سفينة إحساسى ركبت فلم تزل ... تسيرها أرواح أفكاره الخُرْسِ
فلما عَدَتْ بحر الوجود وعاينت ... بسيف النهى من جل عن رتبة الأنْسِ
دعانى به عبدى فلبَّيْتُ طائعًا ... تأمل – فهذا القطفُ فوق جنى الغرسِ
فعاينت موجودا بلا عين مبصرٍ ... وسُرِّح عينى فانطلقْتُ من الحبْسِ
فكنت كموسى حين قال لربه ... أريد أرى ذاتا تعالت عن الحس
فدك الجبال الراسيات جلاله ... وأصعق موسى فاختفى العرش فى الكرسى
وكنت كخفاش أراد تَمتُّعًا ... بشمس الضحى فانْهَدَّ من لَمْحة الشمس
فلا ذاته أبقى ولا أدراك المنى ... وغودر فى الأموات جسما بلا نَفْسِ (٢)

(١) عبد القاهر الجرجانى دلائل الاعجاز : فى علم المعانى : ص ٢٢ .
(٢) أبن عربى ديوانه الجزء الأول ص ٢٩ .

(٤) اتجاه النقد إلى معالجة الشكل اكثر من المضمون :

غلب على النقاد العرب النقد الخارجي .. وما يحمله تآلف اللفظ والمعنى من معان . وأخذت قضية اللفظ والمعنى . جهدا عقليا مكثفا ومساحة كبيرة من كتب النقد العربى وانتصر بعض النقاد لقضية اللفظ وآخرون أكدوا على المعنى أولا :

فقدامة بن جعفر لا يرى أى ضرر اذا حملت الألفاظ الجيدة معنى غير حميم أو ذميم ، على أن يتوخى البلوغ من التجويد فى ذلك إلى الغاية المطلوبة وكذلك أشار العسكرى إلى المعنى ذاته . أما الجاحظ وابن الأثير فقد شددا على المعنى الشريف من أى انسان ولو جاهلا .

ويمكن أن نستشف من مصطلح " المعنى الشريف " مبادىء نظرية الشعر المتجهه إلى أغراض شريفة التى نادى بها فى العصر الحديث : السير فيليب سدنى فى كتابه : اعتذار عن الشعر أو دفاع عن الشعر " ويعد هذا الكتاب أول عمل نقدى ممتاز فى التراث الانجليزى .

ولم يقدر لهذا الاتجاه النجاح لأن باقى النقاد العرب لم يركزوا عليه فهم قد نظروا للشعر نظرة فنية خالصة تشبه مايسمى فى العصر الحديث : الفن للفن ".

فابن سلام يتحدث فى " طبقات فحول الشعراء " عن شعراء أخلاقيين وشعراء غير أخلاقيين فى الجاهلية ولكنه لا يرتب على ذلك أى حكم نقدى يتخذه أساسا للمفاضلة بين هذين الفريقين من الشعراء . وعد ابن سلام فى الطبقة الأولى امرؤ القيس والنابغة وقد قال عنهم إنهم ممن يتعهرون فى شعرهم .

وابن قتيبة لا يشير في مقدمته لكتابه : الشعر والشعراء " إلى ربط الشعر برسالة أخلاقية معينة ، ومنهج الآمدى فى كتابه الموازنة منهج فنى خالص فهو لا يضع سوي المقياس الأدبى شكلا ومضمونا مقياسا يقيس به الشعر ويفاضل على أساسه بين أبى تمام والبحترى.

وحتى فى المرات النادرة التي يبدو الآمدى فيها متأثرا ببعض النظريات الفلسفية والتى يعمد فيها إلى التجريد النظرى فى الحكم على الشعر لا يشير إلي أى عنصر أخلاقى فى العناصر التى يقوم عليها الشعر فى هذا الجانب ينقل الآمدى عن : شيوخ أهل العلم بالشعر " تعريفهم للشعر الجيد فيقول : " زعموا أن صناعة الشعر وغيرها من سائر الصناعات لا تجود وتستحكم إلا بأربعة أشياء جودة الآله، وإصابة الغرض المقصود ، وصحة التأليف ، والانتهاء

إلى نهاية الصنعة من غير نقص منها ولا زيادة عليها "(١) .

ثم يصل هذه العناصر الأربعة بنظرية العلل الأربعة المشهورة وهى :

العلة الهيولانية ، والعلة الصورية ، والعلة الفاعلة ، والعلة التمامية ، والقاضى الجرجانى فى كتابه : " الوساطة يرد على من أخذ على المتنبى بعض أبيات تتنافي والخلق القويم ويقول : " فلو كانت الديانة عارا على الشعر ، وكان سوء الاعتقاد سببا لتأخير الشاعر لوجب أن يمحى اسم أبى نواس من الدواوين ويحذف ذكره إذا عدت الطبقات ولكن الأمرين متباينان والدين بمعزل عن الشعر (٢) ومما تقدم نري أن النقاد القدامى لم يغوصوا فى أعماق المرئيات والمحسنات البيانية التى تحملها الألفاظ معانى مختلفة ، ولم يعيروا ما وراء الصور البيانية من الشعر اهتماما مركزا . ولم يدرس الشعر دراسة نفسية روحية . ولم يبحث فيه بحثا عميقا . بل ظل النقد يحوم حول الأدب من زاوية محدودة وعولج الشعر معالجة جزئية ، ولم تقدر النواحى الفكرية والجوانب الروحية التى عبقت بها بعض الأعمال الشعرية الخالدة .

ولا يمكن أن نغفل بعض الظواهر النقدية التى كان لها الأثر الفعال فى تقويم حركة النقد العربى مثل ابن طباطبا العلوى الذى " استطاع من خلال ربطه بين الأدب والنفس البشرية أن يبرز عنصرا جديدا فى النقد العربى هو : العنصر النفسى . ذلك أن الإعجاب بالشعر ، والهيام به لا يقف عند ألفاظه وأوزانه وأفكاره وأنفاسه ، بل يكون أقوي وأوضح حين يتجاوب هذا الشعر مع تلك النفس ، فتقبل عليه ، وتطمئن إليه (٣) .

فالإمام عبد القاهر بنظريته فى النظم ومحاولته استكشاف الأثر النفسى للصور البيانية قد أعطى لحركة النقد العربى وجها جديدا ..... ويعطى الإمام عبد القاهر صورة صادقة للشعر حين يرد على من يدعى أن الشعر يحمل الباطل والكذب وبعض مالا يحس .. فيقول :

فكيف وضع من الشعر عندك ، وكسبه المقت منك أنك وجدت فيه الباطل والكذب وبعض مالا يحسن ، ولم يرفعه فى نفسك ولم يوجب له المحبة من قلبك . أن كان فيه الحق والصدق والحكمة وفصل الخطاب ، وأن كان مجنى ثمر العقول والألباب ، ومجتمع فرق الآداب . والذى قيد علي الناس المعاني الشريفة ، وأفادهم الفوائد الجليلة ، وترسل بين الماضى والغابر ينقل

(١) الآمدى .. الموازنة ص ٣٩٣ .
(٢) القاضى الجرجانى : الوساطة بين المتنبى وخصومه ص ٥٨ .
(٣) أنظر : عيار الشعر للعلوى ص ١٥ .

مكارم الأخلاق إلى الولد عن الوالد ، ويؤدى ودائع الشرف عن الغائب إلى الشاهد حتى ترى به آثار الماضين ، مخلدة فى الباقين ، وعقول الأولين ، مردودة فى الآخرين ، ونرى لكل من رام الأدب وابتغى الشرف ، وطلب محاسن القول والفعل ، منارا مرفوعا وعلما منصوبا ، وهاديا مرشدا ، ومعلما مسددا ، وتجد فيه للنائى عن طلب المآثر ، والزاهد فى اكتساب المحامد ، واعيا ومحرضا ، وباعثا ومخصصا ومذكرا ومعرّفا ، وواعظا ومثقفا (١)

ونظرية الشعر التأملى التى لم يهتم بها النقد العربى القديم بلورها ، سدنى فى كتابه دفاع عن الشعر فى ثلاث نقاط رئيسية متصلة :

أولا : أنه عاد إلى التاريخ فوجد أن الشعر كان من أهم الوسائل التعليمية التى غذت عقول الناس فساعدت بذلك على نقل البدائيين إلى مراحل حضارية أعلى .

وثانيا : أنه ناقش الشعر على أساس فلسفى فوجد أنه قادر على إبراز الحقيقة والتعبير عن التجربة الانسانية فى صورة حية تغرى باتباعها .

وثالثا : أنه توصل بناء على هذا إلى أن الشعر يثرى العقل الإنسانى والشخصية الإنسانية بحيث يمكن الإنسان من إدراك الحقيقة والإحساس بها والتصرف طبقا لمقتضياتها "(٢) . .

والشعر بعد هذا كله " ينبغى أن يدهشنا عن طريق التطرف الرقيق لا عن طريق الفردية . ينبغى أن يفزع القارىء بحيث يحس كأن هذا الشعر يعبر عن أفكاره هو نفسه وفى أعلى حالاتها . وينبغى أن تبدأ الصورة الشعرية وتتطور وتأخذ شكلها بطريقة طبيعية أيضا بحيث تغمر القارىء ، كما تغمره الشمس . والشعر إذا لم ينبعث بصورة طبيعية كما تنبعث الأوراق عن الشجرة فمن الخير أن لا ينبعث على الإطلاق "(٣)

---

(١) عبد القاهر الجرجانى : دلائل الإعجاز ص ٢٦ .

(٢) د / محمود الربيعى : فى نقد الشعر ص ٤٢ ، ٤٣ .

(٣) من رسالة كليتس إلى جون تيلور فى ٢٧ فبراير ١٨٢٨ نقلا عن د / محمود الربيعى فى كتابه السابق ص ٩٣ – ٩٤ .

(د) بين التأمل والفلسفة

التأمل كما أوضحت سابقا هو البحث عن جوهر الأشياء ومحاولة التماس الحقائق بعيداً عن التقعيد والتقنين لأن الروح هى نقطة انطلاقه والعقل منارة على طريقه تهديه ولاتعوقه .

والمتأمل فيه من الفليسوف حكمته ، ومن الشاعر رقته ، ومن الصوفى شفافيته ، ومن الفنان نبوءته .

فهل التأمل بالمفهوم السابق مطابق للفلسفة ؟ وهل من يخوض التجربة التأملية نعده فيلسوفا ؟ .

وللإجابة على السؤالين السابقين لابد من توضيح مفهوم الفلسفة ومفهوم الفليسوف والمقارنة بين وظيفة الفلسفة ودور التأمل ومايتميز به كل من الأديب والفليسوف . ويمكن على ضوء ماسأوضحه حول النقاط السابقة أن أحدد هل أدباء المهجر فلاسفة أم أنهم اكتفوا بالتأمل ولم يصلوا إلى نهاية مستقرة ثابتة نابعة من منظورهم الخاص للأشياء .

-١-

وكلمة فلسفة أخذها العرب من كلمتين يونانيتين إحداهما " فيلو " ومعناها محبة والثانية " سوفيا " ومعناها حكمة أو معرفة . وقد استعمل العرب كلمة فلسفة فى هذا المعنى .

وأخذوا كلمة فيلسوف من كلمتين يونانيتين أيضاً : إحداهما " فيلوس " أى محب والثانية " سوفيا" أى الحكمة والمعرفة .

وقد استعمل العرب كلمة فيلسوف فى هذا المعنى .

وقد عرفت الفلسفة تعريفات كثيرة فى مراحل تطورها المختلفة .

(أ) ففى عصر ماقبل أرسطو عرفت الفلسفة بأنها : هى البحث النظرى فى العالم الطبيعى ومعرفة أصله ، ويعرفها سقراط بأنها : البحث عن الحقائق الكلية والمبادىء الأخلاقية بحثا نظريا ، ويعرفها أفلاطون بأنها : البحث عن الإله وعن حقائق الأشياء الأزلية ومعرفة الخير للإنسان .

ويعرفها أبيقور بأنها : البحث عن أخلاق الإنسان وسلوكه لتحقيق اللذة المادية التى

يعقبها هدوء وطمأنينة عقلية .

ويعرفها أفلوطين بأنها : البحث فيما وراء الطبيعة بحثا نظريا ممزوجا بالآلام والعمل على خلاص النفس الإنسانية من الجسم وصعودها إلى الأول والاتحاد به .

وعرفت فى العصور الوسطى المسيحية بأنها : البحث فيما وراء الطبيعة تحت سلطان الدين .

(ب) وفى أوائل القرن السابع بعد الميلاد أشرقت فسلفة الحق والعقل معاً فى الشرق . ونزل القرآن الكريم على رسول الإسلام فأفسح مجال التفكير فى الطبيعة وماوراء الطبيعة ، ودعا إلى الفلسفة فى كل نواحيها وعبّد لها الطريق فى عالم الخفاء أى فيما وراء الطبيعة .

وللفلسفة عند الفلاسفة المسلمين تعريفات عدة :

فالكندى يعرفها بأنها : العلم بجميع الأشياء .

والفارابى يعرفها بأنها : استكمال النفس الانسانية بتصور الأمور والتصديق بالحقائق النظرية على قدر الطاقة البشرية .

وصدر الدين الشيرازى يعرفها بأنها استكمال النفس الإنسانية بمعرفة حقائق الموجودات على ماهى عليه والحكم بوجودها .

(جـ) وأخذت الفلسفة تعريفات عدة عند علماء الغرب .

فتعرف عند فرنسيس بيكون بأنها : العلم بالروابط الكلية بين الأشياء .

وتعرف عند ديكارت بأنها : البحث عن المبادىء الثابتة والأصول الأولى لجميع الموجودات .

وتعرف عند " كانت " بأنها : المعرفة النظرية المستمدة من المعانى الذهنية .

وتعرف عند "هريرت " بأنها : تحليل المعانى العقلية أى تصنيفها وضبط مفهوماتها بنسبة بعضها إلى بعض (١) .

(١) أنظر كتاب " الفلسفة الإسلامية " : طاهر عبد المجيد .

وعلى ضوء التعريفات السابقة للفلسفة يمكن أن تعرف الفليسوف بأنه :

هو الذى يجهد عقله فى حل مشكلات الحقائق ومعميات الكائنات . ويرى أن الحياة كل الحياة فى النظر فيها واستطلاع حقائقها وسر وجودها . وهو يتخذ البحث فى حقائق الأشياء مهنة له ويهون كل شىء فى سبيل تنفيذ هذه المهمة التى حملها على عاتقه .

- ٢ -

ومما سبق يتضح أن هناك علاقة موضوعية بين الفلسفة والتأمل فهما يشتركان فى موضوعات واحدة إلا أن التأمل يختلف عن الفلسفة فى أنه لايعنى بالقوانين الثابتة ولا التعريفات المحددة التي تعطى منهجا متكاملا له صفة الثبات والتوحد ، والفلسفة مصدرها العقل أما التأمل فيستضىء بوميض العقل الصافى الذى يكشف الطريق ولايحدد الأبعاد مع مؤازرة الوجدان والشعور وليس من غرائب الطبائع أن تتوفر لدى الفليسوف قدرة الأديب أو يستقر فى أعماق الأديب ومض لماح من عقلية الفليسوف .

" ونوفاليس " فى أحد فصول الشذرات يتحدث عن الأدباء وعالمهم فيقول : " إذا كان الفليسوف ينظم كل شىء ويضعه فى موضعه ، فإن الأديب يفك كل القيود ، إن كلماته ليست علامات عامة بل هى أنغام ورقى سحرية تحرك حولها مجموعات جميلة " (١)

ومن قديم شُهر عن أفلاطون نظرية المحاكاة فى الشعر " واعتبار الشعر بأنواعه مرادف للنقل والتقليد .

ولكن كثيراً من نقاد القرن العشرين يحاولون أن يستخلصوا من عباراته بعض المعانى التى ترد على الشعر اعتباره وتعدل من الفكرة الأفلاطونية بأن هناك شجارا قديما بين الشاعر والفليسوف وعداوة لاتقبل التصالح بين الشعر والفلسفة (٢) .

وبين أفلاطون أن الشاعر إنسان غير عادى حيث إنه يوحى إليه والشاعر لايستعمل اللغة استعمالا عاديا وإنما يستعملها بطريقة فيها إلهام يشبه الجنون .

وقد يوحى هذا الكلام من بعيد بأن الشاعر يتمتع بمالا يتمتع به الفليسوف حيث يتحرر من القيود والالتزامات التى توضع عادة على الأخير " الفيلسوف " "وسيدنى " الناقد الأنجليزى

(١) د / عبد الغفار مكاوى : ثورة الشعر الحديث ص ٤٦ .

(٢) د / محمود الربيعى فى نقد الشعر ص ١٦ .

فى كتابه " دفاع عن الشعر " يقترب فى تفكيره من أرسطو حين يؤكد أن الشعر يحتل مرتبة أعلى من المرتبة التى تحتلها الفلسفة والتاريخ وهو يبدأ هذه النقطة بتقرير الدور الهام الذى يلعبه هذان النوعان من الثقافة الإنسانية في التأثير الإنسانى ويقارن بينهما وبين الشعر فى مفهومه فالشعر يتجه إلى غايات خلقية ويثرى التفكير الإنسانى بومضاته الفلسفية العميقة .

والفلسفة من طبيعتها التعريف والتحليل وهى تعالج موضوعاتها العامة وتصل إلى نتائجها الخاصة عن هذا الطريق .

والتاريخ يهتم بالغاية العملية لا النظرية . وهو لا يستخدم الحجة المجردة للوصول إلى أهدافه التعليمية وإنما يستخدم المثال الخاص المحسوس من الحياة . ولكل واحدة من طريقتى الفلسفة والتاريخ عيوبها .

فالفلسفة تصعب على الإدراك وتتصف بالغموض لأنها تعالج المجردات ولذلك فهى مرشد فقير للشباب وهى شائقة فحسب لهؤلاء الذين هم على قدر من المعرفة .

كذلك فإن التاريخ فى عنايته بالأمثلة المحسوسة إنما يقدم أمثلة عملية تنبع منها الحقيقة العامة ولكن على نحو من الغموض والاضطراب ، لما فى طريقته من الجزئية وعدم الشمول .

أما الشعر فيجمع العناصر الجيدة فى كل من الطريقتين :

حيث يقدم الحقيقة العامة التى هى غاية الفلسفة .

وهو يقدمها أمثلة خاصة حية ومحسوسة كما يفعل التاريخ (١) .

فالشعر المتسم بالتأمل يثرى العقل الإنسانى والشخصية الإنسانية بحيث يمكن الإنسان من إدراك الحقيقة والإحساس والتصرف طبقا لمقتضياتها .

-٣-

وأدباء المهجر وشعراؤه " اتهموا بأنهم فلاسفة أكثر منهم كتابا وحتى رموا بالهرب من الحياة " (٢) ولكن الرأى الصائب أنهم إذا كانت لهم اتجاهاتهم الفلسفية ونزعتهم العقلية فى التفكير فإن هذا لم يورطهم فى جفاف الفلسفة بل بقوا أدباء يتحدثون فى الفلسفة بلغة الأدب

(١) المصدر السابق ص ٤١ .

(٢) د / عبد الكريم الأشتر . النثر المهجرى ص ٨٧ .

لابلغة الفلسفة ويقول د / جميل صليبا : إنهم أدباء لأصحاب مذاهب فلسفية تنبع من عبقريتهم الخاصة " (١) فلا نستطيع أن نعدهم فلاسفة " لهم نظرية فلسفية معينة مقننة فهم لم يطمحوا فى ذلك وإن طمحوا فلن يصلوا لأن إحساسهم الشعرى وعاطفتهم المشبوبة وخيالهم سيبتعد بهم كثيراً رضوا أم كرهوا عن التقعيد الفلسفى الجاف ، فأغلبهم متقلب المزاج ، يفسر الوجود من خلال ذاته وانعكاسات الظروف عليه .

ويمكن أن نستثنى ميخائيل نعيمه وجبران .

وإن كان جبران لايتمتع بالهدوء والعقلية المنظمة الواعية التى يتمتع بها نعيمة (٢) فرغم أن نعيمة يتقلب فى كثير من الأحيان ولكننا نلمح من هذا التقلب مظاهر للثبات فمنذ البدء يؤمن الشاعر بالقلب ، ويستنيم إلى الطمأنينة النفسية . ويتحدث عن حبه الذى رفضه الناس ، وعن ضميره الذى قدسوه ، وقلبه الذى أحرقوه وتظل هذه المعانى صورته الصحيحة مهما تتجمع حولها صور الجمود العاطفى أو القلق النفسى ، أو العطف على الناس .

حتى لو أردنا أن نقيم من فهمه للخير والشر ، والمسؤلية الإنسانية ، والطمأنينة الصوفية ، والعلاقة بين الله والإنسان فلسفة لايعتريها تناقض فى أصولها لما وجدنا ذلك أمراً بعيداً .

ومعنى هذا أن القاعدة الفلسفية فى أدبه سليمة . وإن كان التقلب العاطفى يغير أحياناً من قسماتها . (٣)

وتظهر فلسفة ميخائيل نعيمة فى كتابه " مرداد " الذى يهديه إلى التواقين إلى التغلب أما غير التواقين فليحذروه " (٤) .

ومفتاحُ فلسفتهُ الصمتُ وهو كثير التردد فى أدبه وهو نفسه كان يظل صامتا ولايكلم حتى أصحابه ولايلقى عليهم التحية مدة قد تصل إلى عشرة أيام ، وأثر العزلة فى مسكنه بعيداً عن ضجيج المدينة .. وهو يفرض الصمت على بطل كتابه " مرداد " ويجعل الصمت من أهم ملامح الأرقش . وقد أورد على لسان مرداد قوله :

---

(١) د / جميل صليبا : الاتجاهات الفكرية فى الشام .
(٢) د / إحسان عباس ، ومحمد يوسف نجم ، الشعر العربى فى المهجر ص ١٨٩ .
(٣) المصدر السابق ١٨٩ .
(٤) ميخائيل نعيمة : مرداد ص ٥٧ .

" إن الصمت الذى أود أن أدخلكم إليه هو تلك القسمة غير المحدودة حيث يتحول اللاوجود إلى وجود ، والوجود إلى لاوجود .

ذاك هو الصمت الذى أودكم أن تجوبوا أرجاءه كيما تنزعوا عنكم فى النهاية جلدكم القديم الضيق وتنطلقوا فى رحاب لاوجود فيها ولاقيود " (١) .

" وفى رسالة إليه قلتُ له منوها ببعض كتبه التى توضح فلسفته :

" وصوت العالم " يتجمع فى لحظة واحدة والأباد تتمثل فى لمحة أبصرك فى ثناياها رائدا تتجدد ،يادته . وتزداد جلاء كلما قدم بها العهد . وكأن مرداد هو الترجمة الحقيقية لهذه الريادة . " والأرقش " هو مفتاحها ، واليوم الأخير هو الوعد الخصب اللا متناهى . فهو النهر الجارى في عيون السالكين دروب الحقيقة التواقين إلى النور المغالبين للديجور .

وزاد المعاد يغري أرواحهم التى التهمت الكثير ولم تشبع بمائدة روحية تكون زادا لعقولهم وقلوبهم . فيخضوضر فى طموحاتهم الأمل .

ويواصلون الرحلة فى أعماق " ابن آدم " بعيدين عن الهوامش ، والمصباح النعيمى فى رؤاهم يتوهج ويقودهم إلى عوالم جديدة معشوشبة بالحب والسلام والنقاء " (٢) .

* وجبران خليل جبران صاغ فلسفته وركزها فى كتابيه النبى وحديقة النبى فكتاب " النبى " هو خلاصة ماوصل إليه جبران من تجارب وآخر ما اقتطفه من معارف الحياة ، ونهاية ماتأثر به من آلام . وكان نقطة التحول الحقيقية فى حياة جبران العقلية وفى توجيه طاقته الإنتاجية فقد استمد جبران من تجاربه ومعارفه وآلامه ماربط به علاقة الإنسان بالإنسان (٣) .

وقد أودع جبران كتاب النبى خلاصة آرائه فى الحب والزواج والأولاد والبيوت والعمل والمساكن والبيع والشراء والجرائم والعقوبات والشرائع ، والحرية والعقل والعاطفة ، والتعليم والصداقة ، واللذة ، والجمال ، والدين ، والموت وكأننا بجبران قضى حياته يستعد لإخراج هذا السفر النفيس فإن كتبه السابقة من عربية وانجليزية ليست سوى مقدمات لما فى هذا الكتاب من

---

(١) ميخائيل نعيمة : مرداد ص ١٠٥ .

(٢) من رسالة أرسلتها إليه بتاريخ ٥ / ٢ / ١٩٧٩ .

(٣) د / ثروت عكاشة . مقدمة كتاب حديقة النبى ص ٩ .

حكمة وفلسفة وشعر وفن " (١)

وفى " حديقة النبى " تتضح فلسفة جبران فى علاقة الإنسان بالطبيعة . وهى مرحلة وصل إليها بعد معاناة فى البحث عن الحقيقة .

فبعد صدور كتاب النبى تطلع إلى بيان علاقة الإنسان بالطبيعة في " حديقة النبى " وعلاقة الإنسان بالله فى " موت النبى " .

وظل ثلاث سنوات وهو يتأمل أسرار الطبيعة وأثرها في تصرفات الإنسان وتمخضت تأملاته عن كتابين هما " رمل وزبد ، وعيسى بن الإنسان " .

وكان صدور الكتابين السابقين مرحلة تمهيدية هيأ فيها ذهنه ووجد انه لإنتاج كتابه " حديقة النبى " .

والطبيعة فى هذا الكتاب هى المنطلق لكل تفكير وهى مركز الدائرة " وهى الضوء الأخضر الذى يتوهج فى أعماقه وينير للسالكين دروب حياتهم المعتمة .

وجبران يربط بين الموت و الحديقة كاشفا عن نظرته الفلسفية إلى الحديقة بوصفها دورة الحياة المتصلة المتجددة . هى حلقة الاتصال بين عالم الأرض وعالم السماء وهى رمز الخلود والبعث ولاينسى جبران وهو يتناول علاقة الإنسان بالطبيعة أن يعالج كثيراً من المظاهر الأخرى التى تكتنف حياة الناس . فيجرد الناس من أرديتهم ويردهم إلى عناصرهم الأساسية الأولى ، لينتهى إلى أن هذه العناصر الأولى أعمق وأقوى مما قد يكتنف وجودهم من مظاهر " (٢) .

(١) جبران خليل جبران : النبى : المقدمة ص (٨ – ٩) .
(٢) د / ثروت عكاشة : مقدمة حديقة النبى ص ٤٨ – ٤٩ .